لو كنا نعي ونعني ما نقول

يوجه بعض الإخوة من الطلبة والخريجين والعمال المسلمين في الندوات والمؤتمرات أسئلة إلى الأخ عصام العطـــار يجيب عليها في وقتها أجوبة مباشرة يسجلها بعض الإخوة الحضور .

وقد طلب غير قليل ممن يستمعون إلى هذه الأجوبة أن تنقل عن أشرطة التسجيل وتنتشر ليتذكرها مـــن اســـتمع إليها ، ويقرأها من لم يستمع إليها من قبل .

وهذا جواب للأخ عصام العطار على سؤال من الأسئلة التي طرحت عليه في مؤتمر (جمعية الطلبـــة المـــسلمين في المملكة المتحدة) نأخذه عن مجلة الجمعية (الغرباء) التي نقلته عن أشرطة تسجيل المؤتمر .

نحن مع الأسف لا نعيش الإسلام ، يكاد يكون الإسلام عندنا عنواناً لماض مضى وانقضى ، لا لحقيقة يجـــب أن تعيش في الحاضر والمستقبل وفي أنفسنا قبل كل شيء .

عندما نسمع الكلمات الإسلامية أو نتكلم بها لا نتجاوز في الغالب حروفها وإيقاعها إلى مدلولاتها البعيـــدة ، ولا يكون لها أثرها الذي يجب أن يكون في حياتنا ، وإنما نعيش منها في مجرد ألفاظ .

وعندما نقرأ كتاب الله عزَّ وجلَّ نقرؤه بألسننا وبينه وبين قلوبنا حجاب ، وإلاّ فيكفي لتتبدل حياتنا تبدلاً جذرياً أن يعي الواحد منّا ما يقول كل يوم ، وأن يعني ما يقول .

عندما يصلي الواحد منّا –مثلاً– يستفتح القراءة بدعاء الاستفتاح : « **وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَـــرَ الـــسَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ** »[1] وليس هنالك أكبر ولا أقوى من خالق السماوات والأرض ، فالإنسان عندما يوجه وجهه إليه يرتفـــع فوق كل قوى الأرض ، وعندما يجعله القصد ينمحي عنده كل قصد .

« **حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ** »[1] أي بعيداً كل البعد عن الباطل ، متصلاً كل الاتصال بالحق ، منقاداً كل الانقياد وخاضعاً كل الخضوع لله عزَّ وجلَّ ، لا أخضع ولا أنقاد لأحد سواه ، ولا أشرك به غيره في أيّ أمر من الأمور ، ولا أنحرف ولا أميل عن صراطه المستقيم

« **إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** »[1]

إنّ صلاتي وعبادتي وأعمالي التي أعملها لله ربّ العالمين .

حياتي إنما كانت بإرادة الله ، ولا يملكها ويملك استمرارها إلاّ الله ، ومماتي .. لا يملك مماتي إلاّ هو ، ولا يكون إلاّ بإرادته عزَّ وجلّ .

حياتي -إن حييت- كلها في سبيله ، ومماتي في سبيله ، ومردي ومصيري إليه وحده « **لاَ شَرِيكَ لَـــهُ وَبِـــذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** »[1]

هكذا يقول المسلم في دعاء الاستفتاح في كل صلاة ، فهل هذا هو الواقع ؟

لو كان المسلم يعي حقيقة هذه الكلمات التي يرددها كل يوم ، لو كان يفهم ويعي حقاً ما يقول ، أمـــا كـــان يكفي ذلك ليتحول بهذه الكلمات وحدها فقط إنساناً جديداً ، وليتحرر بها من كل قيد من قيود الدنيا ، ويرتفع بها فوق المخاوف والمغريات ، وفوق طواغيت الأرض مهما كان طواغيت الأرض .. وليصبح مؤهلاً لحمل رسالة الله ، والتزام طريقه المستقيم ، لا يحيد عنه ولا يرتد ولا يتوقف بحال من الأحوال .

والمسلم الذي يخلص العبودية لله ، ويتحرر من العبودية لما سواه ولمن سواه ، ويكون له ما يستتبعه ذلـــك مـــن المؤهلات والصفات ، هو المسلم الذي يريده ويحتاج إليه ويعمل لبنائه الإسلام :

﴿ **وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [القصص : ٨٨]

والله تعالى يقول :

﴿ **وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [الأنعـــام : ١٧]

والله تعالى يقول :

﴿ **وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ** ... ﴾ [يونس : ١٠٧]

والله تعالى يقول :

﴿ **مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ** ... ﴾ [فاطر : ٢]

إنّ المؤمن الذي يؤمن بربه ويصدق بكلام ربه ، إنّ هذا المؤمن لا بد أن يعتقد عقيدة لا مجال فيها للشك أن أحداً في الوجود لا يملك له ضرراً ولا يملك له نفعاً ، ولا يملك له حياة ولا يملك له موتاً إلاّ بإرادة الله . إنّ هذا المسلم بهذه

العقيدة يصبح أكبر من كل قوة ، وأجرأ من كل إنسان ، وبذلك يستطيع أن يعلن كلمة الحق مهما كانت الظروف، وبذلك يستطيع أن يتابع خطاه على درب الحق مهما تكن العقبات ، وبذلك يستطيع أن يواجه كل المخاطر في سائر الأوقات .

﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۞ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة : ٥١-٥٢]

ولكن المسلمين قد وقع انفصال بينهم وبين قرآنهم ، بينهم وبين نبيهم ، يقرؤون ألفاظاً ، ويقفون بين يـــدي الله جثاً لا قلوب لها ولا حياة فيها ، ولو أننا أقبلنا على الله صادقين ووقفنا بين يديه خاشعين متدبرين ، نقرأ القـــرآن ، ونفهم القرآن ، ونعمل بالقرآن ، لكنّا أقوى أمة في هذا الوجود ولشعر الفرد الواحد منا أنه أقوى من قـــوى الأرض جميعا .

وبهذه الروح بدأ محمد صلى الله عليه وسلّم الدعوة ، وبهذه الروح حمل الأبطال المسلمون مشاعل الإيمان في كل عصر وفي كل مصر .

هذا الأمر الأساسي الذي نغفل عنه هو ما كان يربي عليه رسول صلى الله عليه وسلّم الشباب المسلم .

يقول لابن عباس–عندما كان ابن عباس غلاماً صغيرا– :

« يَا غُلاَمُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّـــهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَـــهُ اللَّهُ لَكَ ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ » رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح .

فلا غرابة أن يكون خريجو هذه المدرسة النبوية رجالاً ، وأن يحوّلوا مجرى التاريخ ، وأن يصنعوا لنا هذه الحضارة العظيمة الضخمة التي أضعناها بما حصل عندنا من ضعف الإيمان ، ومن الإعراض عن الرحمن . فأين أين الإيمان يـــا شباب ؟ أين هذه النار المتقدة التي تعيد صلتنا بالله وتعيدنا وتعيد أمتنا وبلادنا إلى حيث يجب أن نكون نحن من صدر الوجود ؟

لذلك فإن علينا أن نجدد إيماننا بالله ، إن علينا أن ندخل دخولاً جديداً في الإسلام كما كان يفعل الذين يأتون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ويخرجون بعد ذلك أكبر بإيمانهم وبإيثارهم الآخرة على الدنيا ، من كل هذه الدنيا :

إننا نقرأ قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١]

إنّ المسلم الحقيقي هو الذي باع لله نفسه ، وباع حياته بأن له الجنة ، فهو في كل لحظة يستطيع أن يقدم ماله في سبيل الله ، وحياته في سبيل الله .. وشباب مستعدون لتقديم المال ، ولتقديم الحياة في كل لحظة ، لا ينهزمون ، لا ينخذلون ، لا يخضعون .. يمشون فيمشي النصر في ركابهم ، ويستطيعون أن ينتصروا على قوى الأرض مهما عتت قوى الأرض ، ولكن علّتنا الأولى أننا نتكلم عن الإسلام ، ولا نعي الإسلام ولا نعيش الإسلام ، وهذا هو الفرق العظيم بيننا وبين الأولين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم .

ينظر المسلم الآن فيجد الكفر غالباً في بلده ، ويجد الكفر غالباً في عصره فتنكسر نفسه ويأس وينهزم ، ولكنه عندما يكون مرتبط القلب برب العالمين وخالق الناس أجمعين ، يشعر أنه بالله أقوى من الكفر ومن كل شيء من الأشياء ، ويؤمن بأنه في جهاده قدر من قدر الله الذي لا يرد ولا يغلب .

{أُتي رستم قائد الفرس وهو في طريقه إلى القادسية برجل من المسلمين ، فقال لهذا المسلم الأسير الوحيد :

ما جاء بكم وماذا تطلبون ؟
قال : جئنا نطلب موعود الله بملك أرضكم وأبنائكم إن أبيتهم أن تسلموا

قال : رستم : فإن قتلتم قبل ذلك ؟
قال : من قتل منا دخل الجنة ، ومن بقي منا أنجزه الله ما وعده فنحن على يقين .

فقال رستم : قد وُضعنا إذن في أيديكم .
فقال : أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها ، فلا يغرنك من ترى حولك ، فإنك لست تجاول الإنس إنما تجاول القضاء والقدر .

كان المسلم يرى نفسه شيئاً من قضاء الله وقدره الذي لا يُغلب ولا يُرد ، فأين تلك الروح من هذه الروح المتخاذلة التي نراها هذه الأيام .

تلك هي الروح التي كانت تحركهم والتي كانت تدفعهم والتي كانت تقودهم إلى النصر في مختلف الأحوال ..

---

(١) مسند الإمام أحمد